

التربية الخلقية في المنزل

للأستاذ محمد مصطفى عطا

“التوجيه الصحيح لحياتنا النسانية هو التوجيه الصحيح للطفولة نفسها” ألفريد أدلر

قبل أن نتحدث عن التربية الخلقية في المنزل يجدر بنا أن ندرس طبيعة الطفل لنخلص إلى توجيهه التوجيه الخلقى القويم .

يخرج الطفل الى هذه الحياة وقد ورث عن نوعه الإنسانى غرائزه وميوله وما يسمى “الوراثة النوعية” كغريزة المقاتلة والخوف والسيطرة والتماك والغريزة الجنسية وحب الاستطلاع .. الخ ، وورث أيضا عن أجداده من ناحية أمه أو أبيه الصفات الجسمية والعقلية والخلقية وما تسمى “الوراثة الخاصة” والصفات التى يرثها الجنين عن طريق أمه تكون عن البويضة والتى يرثها من جهة أبيه تأتى عن طريق اللقاح والتى يرثها عن نوعه تكون عن طريق البويضة واللقاح معا ، ولهذا قال مونتاني الفرنسى “يا لها من قوة خطيرة تلك القطرة المنوية الدقيقة التى تتكون منها والتى ينقل إليها فضلا عن صفات أصولنا الجسمية أفكارهم وميولهم” .

وهنا يمرض سؤال كثيرا ما يتردد فى الخاطر هو : إذا كان الطفل يرث كل هذه الأمور من غرائز وميول وصفات جسمية وعقلية وخلقية فما فائدة التربية إذن ؟
أجاب فريق من الفلاسفة عن هذا السؤال بأن التربية لا أثر ولا شأن لها وأن الوراثة هى كل شئ فى تقرير مصير الإنسان ، ومن هؤلاء أوجست كانت “وشوبنهاور” .

ولكن هذا رأى ثبت بطلانه فالترية استطاعت أن توجه بعض النرائز الى ما يفيد الفرد والمجتمع ، كغريزة الخوف اتجهت بها نحو الخوف من الله أو القانون ، وغريزة المقاتلة اتجهت بها نحو المنازلة فى سبيل العرض أو الشرف أو الدفاع عن الوطن .

ولأنه ثبت أن هذه الفرائز والصفات توجد فى الإنسان على شكل استعدادات واتجاهات او كما يقول المناطقة توجد بالنوة لا بالفعل ، فإذا وجدت ما يساعدها على الاندفاع فى مجراها الخاطىء سارت فى هذا الطريق ، وإذا هى لها ما ينحويها نحو آخر أو يغير اتجاهها أو يقضى عليها لبست طائفة غير مكروهة وسارت فى السبيل السوى وبهذا جاءت الشريعة الإسلامية قال تعالى “وهديناه النجدين” ، وقال “ونفس وما سواها فآلهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها” وقال “إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا” .

إلى أن هذه الصفات الموروثة تكون غير كافية لمواجهة الرقى والمدنية والتحديد المستمر .
إذا تقر هذا رأياً ، أن البيئة العامة والمتميزة بخاصة لها آثار بعيدة في حياة الطفل ومستقبله ،
فكيف إذن توجد هذه البيئة الصالحة ؟

بالمعرفة وتمييزها معرفة التمايز بأصـ تربوية الطفل - من الوالدين والمربين - بنفسانيته
وميوله واتجاهه ، فكل طفل له اتجاه وميول وصفات تختلف كل الاختلاف عن الطفل الآخر ،
بل إن الأشخـ يختلف عن أخيه في هذه الاتجاهات والميول . فالطفل البكر غير الطفل الأصغر
والطفل الذي يشب بين أخوات غير الطفل الذي يشب بين أخوة ، والبنات الكبرى غير
الوسطى غير الصغرى ، فالإلمام بكل هذه الظروف والملازمات والوقوف على هذه الحالات
وما يلائم كلا منها من علاج يتطلب معرفة بمبادئ علم النفس الحديث حتى لا يشب الأطفال
مرضى بالأعراض النفسانية التي تنجم من نشاطهم وتقدمهم في الحياة ، وتكون شراً على المجتمع .

وقد قرأت أخيراً في صحيفة "الاجبشيان ميل" رأياً لكاتبة إنجليزية في - هذا الموضوع
تعمل على ما يشبه التعليم في مدارس البنات بالبحر القارة : إنه لا يكفي أن تتعلم الفتاة الإنجليزية
في المدرسة كيف تطهى الطعام وكيف تنظف الطفل فحسب ، بل يجب أن تدرس نفسانية
الطفل الذي يطلب منها توجيهه وفق ميوله الطبيعية ليكون وطنياً جذيراً بهذا الاسم .

وإذا تهأت لنا هذه المعرفة بالطرق المختلفة أمكننا أن نفرس الفضيلة في نفوس أطفالنا
وأن نقودهم إلى ما فيه خيرهم وسعادة المجتمع .

ولنعرض الآن لبعض الغرائز والميول في الطفل وكيف يوجهها الآباء لتوجيه الصالح
المفيد . كثيراً ما نرى نحن من الآلام نتيجة جهل آبائنا وأخطائهم ، فكنا هذا الرجل الذي
حورب من والديه حرباً عنيفة لأن أحدهما رآه يلعب صرة من المرات مع أن اللعب غريزة
لا تقتصر على النوع الإنساني فحسب بل تمتد إلى الحيوان ، وهذه الغريزة زودنا بها العلم
الحكيم لإعداد أجسامنا وعقولنا بل وحننا لحياة المستقبل التي ستجلبها ونغوض غمارها
وتتطلب منا مبرارة واستعداداً ، فالعاب الحركة مثلاً تدرب القوى الحركية في الطفل على القيام
بوظائفها العامة وبأسهل أنواعها ألعاب الوليد في الشهر الأول من عمره بتترك يديه ورجليه
في مهده عند ما يشع أو يطمئن ، ومن هذه الألعاب العدو والوثب وقذف الكرة مثلاً .

ويدهى أن الحركات التي يقوم بها الإنسان في أعماله البدنية لا تخرج عن هذه الألعاب .
والألعاب النفسية وهي التي تعتمد على قوة من قوى الإدراك "الإدراك" - الملاحظة
التمثيل - التذكر الخ " ونظير في الألعاب الكشفية والتدريج والتمثيل .

وتقوية الخيال تظهر في ألعاب الطفولة بشكل عجيب فالطفل في لعبه يمنح نفسه ما يشاء من ألقاب ويضيف عليها ما يحب من الهيبة والوقار فتراه يمثل قاضيا يحكم بين الناس وما الناس إلا من على شاكلة من الأطفال — أو خطيبا دينا يبشرون ويذرون ، أو قائدا صريبا يدير خطط الهجوم والدفاع ، أو زعيما يقود الأطفال الآخرين ، وهكذا لا ينقضي اليوم حتى يجمع العالم في شخصه .

أدلم تكن صادقين إذن عند ما ذكرنا أن الألعاب إنما هي أعداد لنا للحياة المستقبلية ؟ بلى ، ويؤيد هذا الرأي العلامة الألمانية اذ قال "الألعاب التي تقوم بها صغار كل طائفة من الحيوانات الراقية تشبه الأعمال الجوهرية التي يقوم بها كبارها ، فالحرية مثلا تثب في أثناء لعبها على الكرة أو على قصاصة الورق التي تمر أمامها كما تثب الهرة الكبيرة على الفأرة ، وكما تثب هي نفسها في المستقبل على فريستها " .

ولأن الإنسان أرق أنواع الحيوان ، وحياته ، مقعدة بالنسبة الى قسيحة كانت طفولته أوسع مدى وأطول زمنا ، وفي هذا المعنى يقول العلامة السالف الذكر "لا يلعب الحيوان لأنه طفل ، بل انه لم يكن طفلا الا للعب " .

ولهذه الغريزة فوائد أخرى منها ما حدث به الفيسوف الانجليزى "هيربرت سبنسر" من أن اللعب عمل ضرورى للطفل يتمكن به من "تفريغ" ما لديه من نشاط زائد عن الحاجة . هذه الأهمية التي للعب حامت علماء النفس على أن يقرروا أن الطفل النشيط الكثير اللعب المنتقل الصاخب هو الطفل الطبيعي السليم ، والطفل الذى ننده ، مثال الأدب والطاعة والهدوء طفل مريض محتاج الى علاج .

ومن أجل هذا أنصح للأباء أن يدعوا الطفل يلعب ويلهو كما يشاء وكما يحلو له وسعد ، أو مع رفاقه ، إذ اللعب الجمعى أقدر أنواع اللعب على تكثير كلمات ناموس الطفل ، وعلى إشباع ميوله من السيطرة والتمتالة والاستطلاع والمحاكاة الخ مما يهود طيه في حياته المقبلة بالنفع العميم .

وكما أيضا هذا الرجل الذى أخذ بالشدة والقمع في طفولته من والديه وصربه مع أن هذه السياسة لا تنجح إلا ببلادة الطفل أو مرضه بأعراض عصبية أو تبرده ، وكثير من شبابنا العصبيين أصابهم هذا المرض في وقت طفولتهم من جراء هذه السياسة ، بل أنها تتجاوز هذا الحد فيصاب الطفل بالغرلة النفسانية أو ينسد من الناحية الجينية .

(١) المصدر السابق ص ١٩

(٢) ص ٢١

وانظر ما قرره الدكتور "ألفرد أدلر" بهذا الصدد قال "ومن أكبر المؤثرات في عقل الطفل شعور القمع الناشئ من إفراط الأب أو الأم في العقاب أو الصب، وهذا الأثر يدفع الطفل الى العمل على التخلص من هذا التجمع بالعزلة النفسانية. ولذلك فإن بعض البنات اللاتي يكن آباءهن سريعى الغضب . تكون لهن مثل أولى تصد عن الرجال لأن هؤلاء الرجال كانوا سريعى الغضب ، وقد تصد عن النساء الأولاد الذين تجمعهم أمهاتهم القاسيات ، ويعبر الأبناء عن هذا الصمد بطرق مختلفة ، فقد يصبح الظلام مثلاً نجولاً ، وقد يفسد من الناحية الجنسية^(١) .

ويتصل سياسة الأرحاب سياسة التخويف وكثيراً ما نشهدهما في منازلنا ونسمع الأميات يخوفن أبنائهن عند صياحهم أو بكائهم أو تنويمهم "بأبى رجل مساوغة ، وأبى شوال ، والمارد" .

أو يأتين بأصوات غريبة حتى يسكن الطفل وية قطع أنفاسه وربما كان بكائه لألم أو ضيق .

وهذه السياسة القاهرة أخطر سياسة على الطفل فهي تنطبع بطابع الجبن والخور، وتشيع فيه التردد والضعف فيخذي السير في الظلام أو صعود السلم في الليل ويرعد من الحشرات أو الفيران أو كما يقول العامة "يخاف من خياله" .

أما تقيض سياسة الشدة وهي سياسة تدليل الطفل فلا تقل خطراً عن السياسة الأولى، فتلك سياسة الإفراط وهذه سياسة التفریط .

الطفل المدلل هو الطفل الدائم الصراخ والتمويل إذا لم يجب إلى مطلبه أو مسه طفيف من أذى ، ومن يصدق عليه قول الشاعر .

خطرات النسيم تخرج خديه ولمس الحرير يدعى بنانه

والطفل المدلل إذا أجيبت له رغباته في المنزل فكيف يفعل في لعبه مع الصغار ؟ بل كيف يفعل حين يواجه واجبات المدرسة ؟ بل ماذا يصنع عندما تواجهه مشكلات الحياة؟ التربية الحقيقية هي التي تزود الطفل بديمات تكون عدته للتغلب على صعاب الحياة كالاتحاد على النفس والثقة بها والتحكم فيها وضبطها ، ولقد "كان جان جاك روسو" على حق كبير عندما نادى بأن الغرض من التربية تزويد الإنسان بما يستطيع معه مكافحة الحياة بقوة وصلابة وشدة وأن تقوى ذاتيته الى أبعد الحدود .

وسبيلنا الى التربية الاستقلالية أن ندع الأطفال للطبيعة فلا نقيدهم في مشيهم ولا نأخذ بأيدهم وبالرغم من أن هذا العمل يساهم في الاعتماد على نفسه فإنه يعوق نموه ، وأن نستغل نشاطه إذا كبر بعض الشيء، بإشرافه في تدير بعض شئون المنزل مما يشعره ببعض التبعية

ونستعمله الى الصل النافع ، وإن ندعه يقوم بحل لعبه وتركيبها من غير أدنى مساعدة به فعن اخفاقه ينبعث نجاحه ، ومن محاولاته يكتسب دربة وخبرة .

وأحذر الآباء والأمهات من الغلو في التعاق بأبنائهم والحنو عليهم فينادونهم في كبرهم بأسماء الطفولة ، ويفضونهم في فراشهم عندما يحين نومهم ، ويساعدونهم في مايلهم وماكلهم ويكثرون من احتضانهم وتقبلهم مما يودي بروح الاستقلال وبقضى على ما فيه من صمة الاقدام وركوب الخطر في سبيل عيشه أو وطنه .

وعلى تقوية الذاتية قامت مذاهب في التربية الحديثة كذهب "دكولى" وطريقة "دالتون" .

وبيت الأطفال في إنجلترا الآن يسير على ضوء هذا المبدأ الرفيع .

وأصح للآباء الذين يرون في أطفالهم عادة الصراخ والشكوى من كل أذى تافه أو مطلب عسير المنال أن يتجاهلوهم في هذا الوقت ولا يجيبوهم الى مطالبهم وأن يلقوا اليهم بكلمة تشجيع عندما يرونهم يهتمون مناعب هينة .

وعليهم أن يربونهم على الحشونة في الملابس والمنام والمأكل ، فالأيام دول والزمن متقلب والنعمة لا تدوم ، وما أسمى قول النبي عليه السلام "أخشوشوا فإن النعمة لا تدوم" .

حقا فإن النعمة لا تدوم ، وقد أرتنا الحرب العالمية الأولى والثانية أثر الغارات الجوية في المساكن والمناجروضياع معالم الكثير منها وبخاصة في البلاد التي كانت ميادين لماتين الحربين .

الى أن الحشونة تمهد السبيل لحياة البلدية والانطباع بطابع الرجولة .

وقد زود الطفل بفرصة هامة هي غريزة المحاكاة أو التقليد ، وشاءت القدرة الالهية أن تقرر ميل الطفل التقليدي على محاكاة الأعمال المتوافر فيها أحد الشرطين الآتين .

١ — أن يكون من شأنها تدريب قواه الوراثية على القيام بوظائفها .

٢ — أن تكون صادرة من أشخاص تربطهم بالطفل رابطة عاطفية أو يشعر أنهم أرق منه ، ولا شك أن أرق شخصية في محيط الطفل المنزل : الأب أو الأم ، ومن هنا كانت المسؤولية الملقاة على عاتق الآباء جسيمة وعظيمة ، فكل ما صدر عنهم من أعمال أو فاهوا به من ألفاظ يحاكيها الطفل إن عاجلا أو آجلا ، لأنها في مذهبه وأفته تكون أرقى الأعمال وأنبه المعاني وأبجل الألفاظ فوالد الطفل هو بطله الذي يرى فيه فوقاً وجاذبية ولم لا ؟ أليس في نظره على الأقل هو المسيطر على المنزل : الكبير فيه قبل الصغير ؟

فليس من العيب إذن أن يطالب المصلحون الآباء بأن يكونوا أسوة حسنة لأبنائهم فتحلوا بالأخلاق الناضجة ، ويتعدوا عن الرذائل كالقسوة والإهمال والاسراف والكذب والفش في المعاملة وعدم احترام حقوق الجار ، وكثرة السب والشتم واحتساء الخمر أمام بنينهم إذ كل ذلك سينطبع في نفوس أبنائهم ، وما أحكم عتبة بن أبي سفيان في كتابه الذي

أرسله إلى معلم والده حيث قال "ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بني إصلاح نفسك، وإن أعينهم معقودة بعينيك، فالحسن عندهم ما استحسنيت والتبجح ما استجبحت".
وكما أن الطفل يرى البطولة في والده كذلك يرى فيه الصديق الأول بحبه ووثق به ويفضى إليه بذات نفسه ويستمد منه النصيح والارشاد، فإذا لم يبادله عطفاً يعطف اضطرب الطفل إلى أن يبحث له عن صديق آخر وفي هذا كل الخطورة على حياته الحنفية .

وعلى الوالد أن يستغل فرصة هذه الصداقة ويلقنه الفضائل عن طريق القصة أو ما يفتن بأدائها من سعادة وحب والديه، فهذا التلقين يحمل الطفل على التمدق وسلك سبيل الفضيلة في المعاني أموات الأعمال كما يقولون .

ومما نوصى به الآباء أن يعنوا العناية التامة بتغذية أبنائهم التغذية الكاملة وأخذهم حظهم من النوم المادى المريح وتدفئتهم التدفئة التي تنميه عوارض البرد حتى ينمو جسم الطفل نمواً كاملاً فلا يصاب سلوكه بعقدة النقص التي تسبب له متاعب حمة في حياته المقبلة، وقد عرفت أدلة ثلاث حالات كل منها تسبب للطفل معاكسات شتى وتكون أعسر من غيرها في التقويم والبلج وهي : النقص الجسمي وتلليل الطفل وبغضه من الأقربين .

ولا يقتصر هذا النقص الجسمي على السلوك الأخلاقي بل يمتداه إلى العقل أيضاً ، والحق أن النواحي الثلاث يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ويتأثر بعضها ببعض تأثراً عميقاً، وإن كانت الناحية الأخلاقية أبرز النواحي الثلاث ، فالطفل القويم الخلق هو ذو العقل السليم والجسم الصحيح أو بالأحرى هو الطفل الاجتماعي الذي يؤتم بينه وبين أساليب الحياة الصحيح الوضع المستقيم لاتجاه .

وإني أطالب الآباء بأن يجعلوا من منازلهم آيات للفن والجمال وحسن التنسيق، فلا تنع العين فيها إلا على كل رائع جميل، نطاقيات الزهر، والصور الناطقة يجب أن يكون لها مكانها من المنزل حتى تربى في الطفل حاسة الذوق وعاطفة الجمال .

مما تقدم نرى أن المنزل له عميق الأثر في توجيه سلوك الطفل إلى أن يشب عن الطوق ويصبح رجلاً فنياً، فهو المدرسة الأولى وهو الوجه الأول، وفيه يقضى الطفل أكثر أوقاته حتى بعد ذهابه إلى المدرسة وفيه تنظرو دبرله طبيعياً في غير تصنع أو تكلف ، فإذا وجه الآباء عنايتهم إلى منازلهم فقد أدوا رسالتهم كما ينبغي وتكون قد أعددتا جيلاً ربي على الطموح وقوة العزيمة والاستقلال في الرأي واللامنة والشجاعة والمكبرة وضبط النفس فيمنح بالوطن إلى ما نرجو له من قوة وسيطرة واستعلاء .

محمد مصطفى عطا

أستاذ التربية وولي النفس في برقه